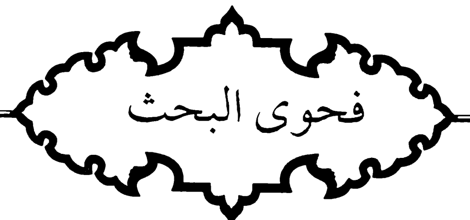


أَلأنثروبُولوجْيا القُرآنيَّةُ

(دراسةٌ في ضَوءِ التفسيرِ الموضوعيِّ)

الشيخ ليث عبد الحسين العتابي

باحث اسلامي - النجف الاشرف



فحوى البحث

يبدأ السيد الباحث بتفسير معنى (علم الانثروبولوجيا) وانه يخص (علم الانسان). ثم يوضح أهداف البحث ثم مشكلة البحث من خلال المؤاخذات على علم الانثروبولوجيا والاسباب التي ادت الى عدم تقبل هذا العلم في العالم العربي وبالخصوص في مؤسساتها الدينية والتشريعية. ثم يبسط موضوعة (القرآن وعلم الانسان) ويقف عند حقيقة يراها الباحث مهمة جداً وهي: ان علم الانسان القرآني هو العلم الذي يتخذ من القرآن مرجعاً ومنطلقاً لكل ما يتعلق ببني الانسان من أجل صياغة تصور جديد وحقيقي نابع من الواقع ورافض لهيمنة النظريات المادية على هذا العلم وبما يحفظ للانسان خصوصيته وكرامته وموقعه الحقيقي. وبذلك فالباحث يضرب مثلا من نظرية النشوء والارتقاء لداروين و يفندها من خلال ادلة من حقيقة الخلق التي اوردها القرآن الكريم.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء و المرسلين و على أهل بيته الطيبين الطاهرين

في البدء لابد من أن نقف عند قضية مهمة ألا و هي إن العِلم الأول، و منشأ العلوم هو الله سبحانه و تعالى، و إن السلطة المطلقة هي لله تعالى، و إن الأديان السماوية، و الأنبياء و الرسل ﷺ، و كذلك الكتب السماوية قد أراد الله سبحانه و تعالى بها هداية البشرية، و رفع مكانة الإنسان، و إيصاله إلى الكرامة التي أرادها له سبحانه وتعالى.

و لابد أن نعلم أن مرد أكثر العلوم هو لله سبحانه و تعالى، فهو الذي أنزلها و علمها بني البشر من أجل نفعهم و فائدتهم، نعم إن أكثرها متغيرة الأسماء، و إن اسماءها في مكان مختلف عن المكان الآخر، كل ذلك لا يغير الحقيقة التي مفادها؛ أن مرد العلوم لله سبحانه و تعالى.

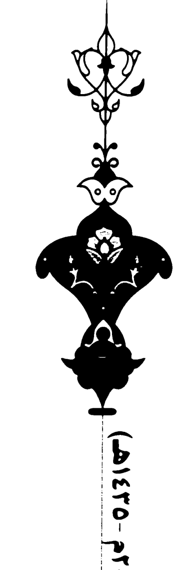
و لا يمكن لأي إنسان أن يقول أنا الذي أخترعت العلم الفلاني، أو ما شاكل ذلك، نعم هنالك أشياء كانت من أختراع الإنسان، و من صناعته، لكنها محدودة بقدر محدودية الجنس البشري بالنسبة لخلق الله سبحانه و تعالى.

و المهم في كل هذا و ذاك أننا و في هذا البحث سوف نحاول التركيز على أهمية هذا العلم، و أساس نشأته، و أسمائه التي أشتهر بها، و كل ما يتعلق به، و كذلك سوف نحاول البحث عن أن مرد هذا العلم إلى الكتب و الأديان السماوية و بالخصوص (القرآن الكريم).

و سوف نحاول أن ندرس أبرز معالم هذا العلم في القرآن الكريم، و الدين الإسلامي، والأحاديث الشريفة، في محاولة ليس منشأوها (أسلمة المعرفة) بل أن الدين الإسلامي كان و لا يزال الرائد في كثير من العلوم و المعارف.

و سوف نحاول أن نبين و نوضح هذا البحث بأبسط الطرق الممكنة داعين المولى القدير أن يوفقنا لكل ما فيه الخير و الصلاح أنه نعم المولى و نعم النصير.

و الحمد لله رب العالمين



تمهيد

لا يخفى على أحدٍ بإن القرآن الكريم هو كتاب الله تعالى أنزله على نبيه ﷺ بهدف هداية البشر، و من أجل خلاصهم، و لتحقيق سعادتهم في الدارين، فإن للقرآن الكريم أهمية كبيرة و عظيمة في تحقيق السعادة الحقيقية للبشرية في الدنيا و الآخرة، و ذلك لمن أهتدى بهداه، و سار على نهجه.

و إنا لو حققنا، أو فحصنا، أو محصنا بدقة للفت أنتباهنا شيء مهم ألا و هو؛ أن هنالك محورين أساسيين يتكرران أمامنا دائماً في آيات القرآن الكريم و إن أختلفت الألفاظ و المحاور و الأسباب و الدواعي، هما (الله) جل و علا، و (الأنسان) المخلوق الأكثر كمالاً على وجه البسيطة.

فهما أكثر محورين بطغيان على آيات هذا الكتاب المجيد، و بالتالي سنستفيد من أن هدف القرآن الكريم هو تنظيم علاقة (الأنسان) بـ(الله) تعالى فهو تعالى خالقه، وربه، وسيده الذي عليه أن يطيعه ويعبده و يتقرب له.

وإن الله تعالى وضع الكثير من التشريعات، والقصص، والعبر، والحِكم، والأمثال، كل ذلك في سبيل رقي الإنسان نفسياً وروحياً، وجعل في هذا الكتاب الكثير من الأسرار و الحِكم و العلوم ما لو توصل إليها الأنسان، وفهمها، وطبقها لنال السعادة الأبدية في دنياه وآخرته.

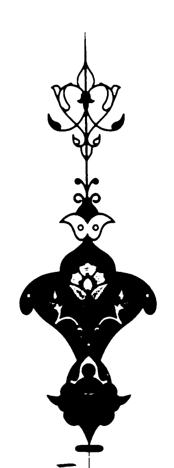
ومن تلك الأسرار، والحِكم، والعلوم (علم الأنسان) أو ما يسمى بـ(الأنثروبولوجيا) والذي سوف نحاول أن نقف عليه بما يحقق الفائدة المرجوة إن شاء الله تعالى.

أهداف البحث

إنَّ استعراضنا قضية (الأنثروبولوجيا) جاء لعدة أسباب مهمة منها:-

١. إن القرآن الكريم ليس مقتصراً على قضايا معينة لا يتجاوزها إلى غيرها، أو أنه خاص بزمن معين، أو مكان معين، أو دين معين، أو مذهب أو طائفة معينة، وإن دل ظاهر بعض الآيات على ذلك، لكن العمومات فيه كثيرة، فهو (حمال وجوه).

وإن تقييده بهذه الأشياء من قبل البعض ما هو إلا بدعة لا دليل عليها،



وتحجيم لكتاب الله الذي وضعه لهداية البشرية من أول يوم نزل فيه و إلى قيام الساعة و فناء الجنس البشري، فهو دستور البشرية و مصدر تشريعها الألهي شاء البعض أم رفض.

٢. إن القرآن الكريم تناول أسراراً و أحكاماً و علوماً كثيرة جداً، عُرِفَ بعضها فيما بعد، و تعددت و تنوعت أسماؤها، إلا إننا نجد لها أصلاً أو ذكراً في القرآن الكريم، فالقرآن الكريم قد وضح أساسيات معينة لقضايا كثيرة فُصِل بعضها في أحاديث شريفة، أو ترك تفصيلها و تفريعها للأنسان وفق ثوابت معينة.

٣. إن معنى (الأنثروبولوجيا) هو (علم الأنسان)، و إن للأنسان الحظ الأوفر، و الذكر الأكثر في القرآن الكريم، بل إن القرآن جاء من أجل هذا الأنسان لتنظيم حياته، فهو كتاب الله سبحانه و تعالى الذي جاء للأنسان و أختص به، فهو الكتاب المختص بالأنسان وبكل ما يتعلق به من علاقات وتنظيمات، ومشاعر وأحاسيس، وحركات وسكنات، ويمكن القول: أننا لو أردنا الكلام عن كتاب أختص بعلم الأنسان فليس هنالك أفضل من القرآن الكريم. لذلك فلا غرو و لا حساسية و إن أختلفت الأصطلاحات و الأستعمالات، (فلا مشاحة في الأصطلاحات).

٤. لقد أصبح (علم الأنثروبولوجيا) أو (علم الأنسان) من الأختصاصات الموجودة في الدراسات الأكاديمية، و بالخصوص في (الكليات و الجامعات)، بل دخل في الكليات الإسلامية، و الأختصاصات الإسلامية، فماذا نصنع؟.

هل نصفه بالكفر؟. أم نمنع التخصص به؟. أم نحرم دراسته؟. أم نغير أسمه؟.

في الحقيقة كل تلك التساؤلات و أكثر منها قد وردت على هذا العلم، و على علوم كثيرة ذات مسميات غربية، لكن لم يلتفت أحد إلى روح تلك العلوم، وهل إنها مستمدة من علوم عربية إسلامية، و هل تفيد هذه العلوم في تطور المنظومة العربية الإسلامية، و ما شاكل ذلك من الأثارات،



فلو فعلنا ذلك لخرجنا من مشاكل كثيرة، و عقد متراكمة خلفتها العقلية المتحجرة، و الأفق الضيق لبعض الفئات التي تعيش خلف الحضارة.

٥. إن ما مر به الإسلام والمسلمون عبر التاريخ من مؤامرات وحروب وإبادات ومعضلات وغزوات وسرقات لم يتح الفرصة لجمع و فهم التراث العربي الإسلامي وما به من حقيقة، فبين ضائع ومسروق، و بين محرف ومزور، و هذا ما يقر به أكثر المسلمين إن لم نقل كلهم، فكيف نتشدد في أمر لابد لنا و وفق العقل السليم أن نتروّى به لنعرف مدى مصداقيته، ومن الذي ذكره، و متى ذُكر، و هل جاء نقض له، و هل قيل لحادثة خاصة أم هو عام، و من الذي قيده و نقله، و ما شاكل ذلك من طرق و أمور إن قمنا بها لحققنا جزءاً كبيراً من المراد، و لوصلنا إلى الحقيقة المطمئنة المفيدة.

لكن الأهم هو عدم الحكم المسبق على الأشياء، بل لابد من التأمل بها، و قياس مدى فائدتها، و بالتالي أسلمتها، أي صياغتها أو صبغها بالصبغة الإسلامية لنحقق الهدف المنشود و الذي أراده لنا الإسلام من أستيعاب الثقافات الآخرى و صهرها في بوتقة الإسلام.

المؤاخذات على الأنثروبولوجيا

أو مشكلة البحث

و هنا لابد أن نتعرض لأهم الأسباب التي دعت إلى عدم تقبل (الأنثروبولوجيا) في العالم العربي، وبالخصوص في المؤسسات الدينية و التشريعية، فعند بحثنا تلك الأسباب يمكن أن نجملها بما يلي: -

١. السبب الأول:-

وهو عدم تقبل فكرة التطور الحيوي عند الإنسان، و الموجودة في (نظرية النشوء و الأرتقاء) التي جاء بها (تشارلز داروين)، و ذلك لتعارضها مع أساسيات الإسلام، و التي منها كون الأنسان قد خلقه الله سبحانه و تعالى كما هو عليه الآن، و ليس هو نتاج حلقة تطورات ذات أصل حيواني، و كذلك باقي المخلوقات.

وفي هذا الشأن يقول السيد الطباطبائي صاحب تفسير الميزان رحمه الله: ((إن النوع الإنساني، و لا كل نوع إنساني،

بل هذا النسل الموجود من الإنسان ليس نوعاً مشتقاً من نوع آخر حيواني أو غيره حولته إليه الطبيعة المتحولة المتكاملة، بل هو نوع أبدعه الله تعالى من الأرض، فقد كانت الأرض و ما عليها و السماء و لا إنسان، ثم خلق زوجان أثنان من هذا النوع و إليهما ينتهي هذا النسل الموجود.. وأما ما أفترضه علماء الطبيعة من تحول الأنواع، و إن الأنسان مشتق من القرد، و عليه مدار البحث الطبيعي اليوم، أو متحول من السمك على ما أحتمله بعض، فإنما هي فرضية، و الفرضية غير مستندة إلى العلم اليقيني، و إنما توضع لتصحيح التعليلات و البيانات العلمية، و لا ينافي أعتبارها أعتبار الحقائق اليقينية، بل حتى الأمكانات الذهنية، و إذ لا أعتبار لها أزيد من تعليل الآثار و الأحكام المربوطة بموضوع البحث..))[1].

فالأعتراض الأول أن ليس أصل الأنسان قرداً، أو أي شيء آخر، و في الحقيقة إن نظرية كون الإنسان قرداً هي نظرية عُرفت عن (داروين) و ألتصقت به، لكن لو رجعنا إلى الفلسفات الآخرى، و بالخصوص الفلسفات الأسيوية حول أصل الأنسان لوجدنا العجب العجاب، و كل ذلك ليس مدار بحثنا هذا، لكن المهم إن قضية أن أصل الأنسان قرد أو ما شاكلها غير مقبولة، و تتعارض مع الثوابت الإسلامية و التي منها كون الإنسان أشرف المخلوقات، و أفضلها، و قد خلقه الله تعالى كما هو عليه الآن بلا تغيير أو تبديل أو تعديل أو تطور، و بما أن علم الأنثروبولوجيا، و بالخصوص الغربي منه يؤمن بإن أصل الإنسان قرد لذا فلقد شُطب على هذا العلم، بل حُرم لهذا السبب.

٢. السبب الثاني: ـ

أرتباط نشأة الأنثروبولوجيا، وبداياتها التاريخية بالأستعمار، حيث كانت الدراسات تتم على المجتمعات البدائية و المتخلفة بهدف معرفة بنيتها التركيبية، و طبيعتها الثقافية، مما يسهل أستعمارها، فأصبحت (الأنثروبولوجيا) أداة أستعمارية هدفها تسهيل مهمة الأستعمار والسيطرة

(١) الجواهر النورانية، السيد الطباطبائي، أعداد و جمع رضوان سعيد فقيه، ص ٢٢٩.

وأستعباد الشعوب.

وهنا يقول (جيرار لكلرك): ((إن موقف الأنثروبولوجيا الأستعماري لم يتوضح بالفعل إلا بعد أن بدأت مرحلة إنهاء الأستعمار في العالم الثالث... يمكن القول إذن إن الإمبريالية الأستعمارية المعاصرة تتوافق زمنياً مع الأنثروبولوجيا المعاصرة..))(٢).

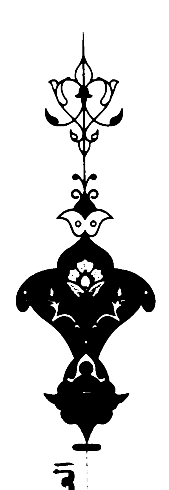
لقد كان الأستشراق المصدر الأول للبدايات التأملية الأنثروبولوجية في الشرق الأوسط -على سبيل المثال، ففي تلك المرحلة كان المستشرقون حتى منتصف القرن التاسع عشر تقريباً علماء للعهدين القديم و الجديد، أو مبشرين، وفي أفضل الحالات علماء بالدراسات السامية، و من أجل ذلك يربط (أدورد سعيد) بين الأستشراق و الأنثروبولوجيا، ليس في النشأة، بل في المادة التي أعتمداها، ثم في أنهما علمان أستعماريان، أو نشئا في مرحلة الأستعمار و لخدمته(٣).

لكن لابد من عدم الخلط، فالأنثروبولوجيا علم وضعي أستغل من قبل الأستعمار وغيره، لخدمة غاياته، فهو- أي الأنثروبولوجيا -قابل لأن يكون أداة خير أو شر على حد سواء، فالخلل ليس في العلم، بل في آلية العمل و الأستخدام.

و إن كان ظننا أن نحرم كل ما جاء به الأستعمار فعلى الأرجح ستتوقف المسيرة الخاصة بنا، و سنرجع إلى ما يسمى بـ(عصر قبل التاريخ)، إذ يكفي لأي عاقل أن ينظر الى ما حوله فيجد كل المنتجات الموجودة هي من مناشئ أجنبية صنعتها الدول التي كانت تستعمرنا في يوم من الأيام، و منها (المطابع، و الورق، و الأحبار، و أدوات الكتابة، الكمبيوترات، و الطابعات، و...، ألخ...) بل كل شيء على مايبدو؟؟؟!!!.

فعلينا ترك هذا السبب و رميه خلفنا، و الأيمان بما سوف نقدمه في المستقبل عن طريق أستغلال وسائل التطور لتحصيل الأستقلال المعرفي الخاص بنا، لا بأن نطبق المنظومة الغربية في كل مجالات حياتنا، و بالخصوص في مجال التعليم، و في نفس الوقت ننقدها، وفي ذلك و بحق (نفاق)

(٢) الأنثروبولوجيا و الإستعمار، جيرار لكلرك، ص١٢.
(٣) الأستشراق، أدورد سعيد.



نستعيذ بالله تعالى منه.

٣. السبب الثالث:ـ

الحساسية من المصطلح، فمصطلح (الأنثروبولوجيا) ليس مصطلحاً عربياً، و لم يشتق من لغة العرب، بل هو مصطلح ذو أصل لاتيني، و قيل يوناني، و قيل غربي، المهم أنه مصطلح وافد، و بما أن هنالك حساسية من كل وافد غريب، و المشهور محاربة و تحريم كل وافد أجنبي، فلابد إذن من تحريم (الأنثروبولوجيا) و لو أصطلاحاً.

لذا فإن (أشكالية المصطلح) هي إشكالية لا تنتهي، و بالخصوص ما بين دعاة التراث و دعاة المعاصرة، فكلاهما يكفر الآخر وفق هذه المشكلة التي لا حل لها أبداً.

و عن قضية (المصطلح)[٤] نقول: إن المصطلح عبارة عن أختصار و إجمال لقضية أو لعلم ما جاء موافقاً لسياقات التعبير اللغوي و موافقة التأويل المراد.

و(المصطلح) ليس شيئاً جديداً، أو إنه مختص بالغرب، أو جاء منهم، إنما هو شيء موجود بالتراث الإسلامي، فنجد الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) يقول: ((وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، و هم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، و هم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم، فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف، و قدوة لكل تابع))[٥].

كما و نجد الخوارزمي (ت ٣٨٠ هـ) يقول في وصفه لكتابه مفاتيح العلوم: إنه جعله ((جامعاً لمفاتيح العلوم و أوائل الصناعات، مضمناً ما بين كل طبقة من العلماء من الموضوعات و الاصطلاحات))[٦].

ونجد أبن فارس (ت ٣٩٥ هـ) يقول: ((حتى لا يكون شيء منه مصطلحاً عليه..))[٧].

كما و نجد التهانوي (ت ١١٥٨هـ) صاحب كتاب كشاف اصطلاحات الفنون

(٤) المصطلح باللغة الأنكليزية (term) و هو مشتق من الكلمة اللاتينية (terminus)، أما علم المصطلح فهو (Terminology).

(٥) البيان و التبيين، الجاحظ، ج١، ص١٣٩.

(٦) مفاتيح العلوم، الخوارزمي، ص٢ -٣.

(٧) الصاحبي، أبن فارس، ص٧.

يقول: ((... فإن لكلٍ اصطلاحاً خاصاً به..))[8].

و نجد كتب و مؤلفات أعتنت بذلك و ذكرته كـ(كتاب التعريف بالمصطلح الشريف) للقاضي أبن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ)، و كتاب (بلغة الغريب في مصطلح آثار الحبيب) للشيخ محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ).

ويقول (الجرجاني) في تعريفه للاصطلاح أنه: ((عبارة عن اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما يُنقل عن موضعه الأول، وإخراج اللفظ من معنى لغوي إلى آخر لمناسبة بينهما. و قيل: الاصطلاح: اتفاق طائفة على وضع اللفظ بازاء المعنى. و قيل: الاصطلاح: إخراج الشيء عن معنى لغوي إلى آخر، لبيان المراد. و قيل: الاصطلاح: لفظ معين بين قوم معينين))[9].

إذن فالمستفاد وجود الاصطلاح و المصطلح في التراث، و هناك كتب عديدة ألفت حوله و بحثت فيه و أشارت أليه.

ومن جراء كل ذلك و ما يحيط به و من تداعياته و إلتباساته و ما أحاطت به من مشاكل و تسأولات نشأ (علم المصطلح) وهو علم حديث يعدّ من العلوم التي ظهرت في القرن العشرين، هدفه تحقيق الهدف المطلوب من مواكبة التطور العلمي و التقني الذي يشهده العالم، و تحقيق الفهم الصحيح لكل وافدٍ جديد بما يلائم اللغة و عقل المتلقي.

وقد عرفوا (علم المصطلح) بإنه هو: ((حقل المعرفة الذي يعالج تكوين التصورات، و تسميتها سواء في موضوع حقل خاص، أو في جملة حقول المواضيع))[10].

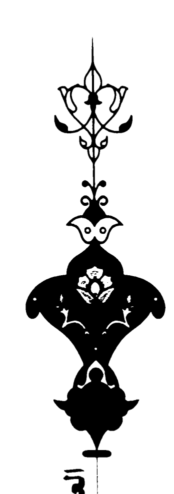
كما وان تأسيس (المجامع اللغوية)[11]

(٨) كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي، ج١، ص٣.

(٩) التعريفات، الجرجاني، ص٢٣.

(١٠) معجم مفردات علم المصطلح، هيئة المواصفات و المقاييس العربية السورية، مجلة (اللسان العربي)، الرباط، المغرب، ع٢٤، ١٩٨٥، ص٢٢٣.

(١١) كـ(مجمع دمشق ١٩١٩، و مجمع القاهرة ١٩٣٢، و مجمع بغداد ١٩٤٧، و أتحاد المجامع العربية ١٩٧٠، و مجمع عمان ١٩٧٦، و المجمع السعودي ١٩٨٣، ومجمع الجزائر ١٩٨٦).



كان من أجل وضع المصطلحات العلمية التي تفتقر إليها اللغة العربية، ودراسة المصطلحات الوافدة والجديدة وإبداء الرأي فيها[١٢].

في تعريف الأنثروبولوجيا

و هنا سوف نحاول الوقوف على تعريف هذا المصطلح للوقوف على ماهيته و حقيقته، فنقول:

الأنثروبولوجيا هي: علم الإنسان، و قد نحتت الكلمة من كلمتين يونانيتين هما (anthropos) و معناها "الإنسان"، و (logos) و معناها "علم"، و عليه فإن المعنى اللفظي لإصطلاح الأنثروبولوجيا (anthropology)هو: علم الإنسان[١٣].

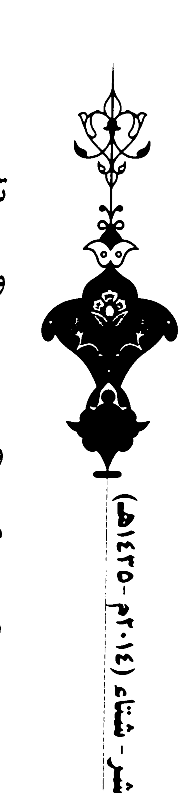
وتعرف الأنثروبولوجيا تعريفات عدة أشهرها:

١. علم الإنسان.
٢. علم الإنسان و أعماله و سلوكه.
٣. علم الجماعات البشرية وسلوكها وإنتاجها.
٤. علم الإنسان من حيث هو كائن طبيعي و أجتماعي و حضاري.
٥. علم الحضارات والمجتمعات البشرية[١٤].

وقد عرفته عالمة الأنثروبولوجيا الشهيرة (مارجريت ميد)[١٥] بقولها: ((أن الأنثروبولوجي يحاول وصف الخصائص الإنسانية، البيولوجية، و الثقافية للجنس البشري عبر الأزمان، و في مختلف المناطق، ويحلل الصفات البيولوجية والثقافية و المحلية كأنساق مترابطة ومتغيرة، كما يصف و يحلل النظم الأجتماعية و التكنولوجية، و يبحث الإدراك العقلي للإنسان و ابتكاراته و معتقداته و وسائل أتصالاته))[١٦].

وعرفه شكر سليم بأنه: ((علم دراسة الأنسان طبيعياً و أجتماعياً و حضارياً))[١٧].

وتُعرف الأنثروبولوجيا بأنها العلم



(١٢) الأدوات المعرفية، الشيخ ليث عبد الحسين العتابي.

(١٣) المعجم الموسوعي لمصطلحات الحداثة ونقدها، مادة أنثروبولوجيا/ مدخل إلى الأنثروبولوجيا، حسن أبو زيد، ص١٣-١٤.

(١٤) المدخل إلى علم الأنثروبولوجيا، شاكر مصطفى سليم، ص٧.

(١٥) مارجريت ميد (١٩٠١ -١٩٧٩ م).

(١٦) قصة الأنثروبولوجيا، حسين فهيم، ص١٣.

(١٧) قاموس الأنثروبولوجيا، ص٥٦.

الذي يدرس الإنسان من حيث هو كائن عضوي حي، يعيش في مجتمع تسوده نظم وأنساق أجتماعية في ظل ثقافة معينة، ويقوم بأعمال متعددة، ويسلك سلوكاً محدوداً، وهو أيضاً العلم الذي يدرس الحياة البدائية، و الحياة الحديثة المعاصرة، و يحاول التنبؤ بمستقبل الإنسان معتمداً على تطوره عبر التاريخ الإنساني الطويل، و لذا يعتبر علم دراسة الإنسان (الأنثروبولوجيا) علماً متطوراً، يدرس الإنسان و سلوكه، و أعمالـه(١٨).

فعلم الأنثروبولوجيا يدرس الأنسان بكونه أحد أفراد مملكة الحيوان، و تدرس سلوك الأنسان في المجتمع، و الأشكال الأولى للإنسان، و المجاميع الأولى لبني البشر، كما و تحاول الأنثروبولوجيا كشف وتوصيف المعايير الفيزيقية التي تميز الجنس البشري عن سائر الكائنات الحية الأخرى، وفق دراسات ذاتية و مقارنة حتى داخل الأسرة الواحدة(١٩).

وتقسم الأنثروبولوجيا على أربعة أقسام رئيسية من وجهة نظر الأنثروبولوجيين في بريطانيا، و هذه الأقسام هي:

١. الأنثروبولوجيا الطبيعية (physical anthropology).
٢. الأنثروبولوجيا الأجتماعية (Social anthropology).
٣. الأنثروبولوجيا الحضارية أو (الثقافية) (Cultural anthropology).
٤. الأنثروبولوجيا التطبيقية (Applied anthropology).

و للأنثروبولوجيا علاقة وثيقة ببعض العلوم الأجتماعية أهمها:

١. الأثنولوجيا: وهي علم تاريخ الحضارات والعلاقات الحضارية بين الشعوب، وتصنيف الحضارات وتوزيعها و إنتشارها في العالم.
٢. الأثنوغرافيا: و هي الدراسة الوصفية للمجتمعات و حضاراتها.
٣. الآركيولوجيا: (علم الآثار): وهي الدراسة الأثنولوجية، و الأثنوغرافية لحضارات شعوب بائدة من الآثار التي يجدها العلماء في الحفريات.

(١٨) مدخل إلى علم الإنسان، عيسى الشماس، ص١٣ -١٤.
(١٩) المعجم الموسوعي لمصطلحات الحداثة و نقدها، مادة أنثروبولوجيا.

٤. علم الأجتماع: و هو دراسة الظواهر التي تنبثق عن العلاقات بين المجموعات البشرية، ودراسة العلاقة بين الإنسان و بيئته البشرية، ويركز علم الإجتماع الحديث في دراسته على الظواهر الإجتماعية الأكثر تقدماً، أي على مشكلات المجتمعات المعقدة و المتطورة[٢٠].

و لابد ان نعلم ان علم الأجتماع و الأنثروبولوجيا علمين متقاربين متشابهين، بحيث لا يمكن للباحث الفصل أو التمييز بين هذين العلمين لدرجة تقاربهما، و لمن أراد التفريق بينهما مراجعة الكتب المختصة في ذلك[٢١].

الأنثروبولوجيا من حيث التاريخ

الظهور الإصطلاحي

لقد ظهر مصطلح (الأنثروبولوجيا) في بريطانيا عام (١٥٩٣ م)، وكان المقصود به دراسة الأنسان من جميع جوانبه الطبيعية و السيكولوجية و الاجتماعية، و ظل يحمل معنى الدراسة المقارنة للجنس البشري، ويحاول أصحاب هذا العلم دراسة الأنسان وكل أعماله، أي كل منجزاته المادية والفكرية، أي الدراسة الشاملة للإنسان، أما كعلم إنسان مختص لم يعرف في الغرب إلا منذ قرنين من الزمان، و إن الأنثروبولوجيين الغربيين، و لا سيما الأوربيون منهم، يرون أن الأصول النظرية الأساسية لعلم الأنثروبولوجيا ظهرت إبان عصر (التنوير) في أوربا، أي في (عصر النهضة) حيث تمت كشوفات جغرافية، و ثقافية، و صناعية كثيرة داخل أوربا و خارجها.

و بذلك نعلم أن علم الأنثروبولوجيا- بما يحمل المسمى من معنى - علم حديث العهد إذا ما قيس ببعض العلوم الأخرى كالفلسفة و الطب و الفلك و غيرها.

وعن كلمة (أنثروبولوجيا) يذكر الباحث الفرنسي (جان بوارييه): (إنها ظهرت أولاً في كتابات علماء الطبيعة إبان القرن الثامن عشر لتعنى بدراسة التاريخ الطبيعي للإنسان)[٢٢].

(٢٠) المدخل إلى الأنثروبولوجيا، شاكر مصطفى سليم و ص ١٤ -١٦.

(٢١) المعجم الموسوعي لمصطلحات الحداثة ونقدها، مادة أنثروبولوجيا.

(٢٢) قصة الأنثروبولوجيا، حسين فهيم، ص١٣-١٩.

أما فروع (الأنثروبولوجيا) المتعددة فلم يشهد هذا العلم قبل النصف الثاني من القرن العشرين تقسيمات، و فروعاً متعددة، إذ كانت قبل ذلك خاصة بالباحث، و العالم المتخصص بهذا العلم، و مع إنطلاقها في الستينات من القرن العشرين أخذت تتبلور حتى وصلت إلى أن تكون علماً مستقلاً له خصوصيته و معالمه و أهدافه، لذا فقد شهد القرن العشرين مراحل تكوين الأنثروبولوجيا و تطويرها لتصبح كياناً أكاديمياً، و مهنة عند الكثير من العلماء

الأنثروبولوجيا من حيث المحتوى

أما من حيث المحتوى، وهو دراسة الإنسان وكل ما يتعلق به، ودراسة المجتمع، والبحث في الشؤون الإنسانية، و المجتمعات البشرية فقديم قدم الإنسان، و ذلك مذ وعى الإنسان ذاته وبدأ يسعى للتفاعل مع بيئته و مجتمعه و أبناء جنسه.

إن الأهتمام بالإنسان، و بكل ما يختص به هو محور الديانات، و رسالات الأنبياء و المرسلين، و الكتب السماوية، لكن و بما أن الكثير من التحريف و التزوير قد طرأ على الرسالات والكتب السابقة، فلم يبق لنا إلا مصدر واحد ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[سورة فصلت: ٤٢].

ألا و هو (القرآن الكريم)، و بذلك يصبح علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) علم إسلامي بأمتياز، وضع أسسه القرآن الكريم، و وضحت هذه الأسس في الأحاديث الشريفة للنبي محمد، و لباقي المعصومين، ثم أمتاز به الرحالة و المستكشفون و البلدانيون المسلمون، و الذين جابوا مختلف الأصقاع من أجل البحث و التنقيب و المقارتة بين المجتمعات البشرية، و بذلك كانوا أنثروبولوجيين بمعنى الكلمة قبل أن يظهر هذا المصطلح في أوربا.

ولقد قام هؤلاء العلماء المسلمون برحلاتهم أهتداءً و أقتداءً بقوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾[سورة العنكبوت: ٢٠] و قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾[سورة النساء: ١٠٠].

لذا فقد طاف العلماء حول المسلمون

العالم، و درسوه جيداً، و سجلوا و دونوا كل شيء عن شعوبه، لذا فإن أسس و أهداف الأنثروبولوجيا الحديثة قد حقق أهدافها العلماء المسلمون قبل أن يظهر هذا المصطلح، و قبل أن يصبح علماً، و اختصاصاً تُساق له النظريات، و تُكتب حوله الأبحاث، و له فروعه و أختصاصاته في الكليات و الجامعات.

القرآن و علم الإنسان

وهنا لابد أن نقف على حقيقة مهمة جداً ألا و هي؛ إن علم الإنسان القرآني هو العلم الذي يتخذ من القرآن مرجعاً و منطلقاً مؤسساً لكل ما يتعلق ببني الإنسان، كل ذلك من أجل صياغة تصور جديد و حقيقي نابع من الواقع و مبعد لهيمنة النظريات المادية على هذا العلم بما يرجعة إلى حظيرته الأولى و الحقيقية، و بما يحفظ للإنسان خصوصيته و كرامته و موقعه الحقيقي، و ما التعدد الشكلي و اللوني و اللساني و الثقافي و المعيشي إلا عنصر تنوع و إثراء و قوة للحضارة البشرية.

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾ [سورة الروم: ٢٢].

إن مسألة أختلاف الألوان، و اللغات، و غيرها، يرجع إلى أختلاف الدماء وهو مبني على نظرية (النشوء و الأرتقاء)، و قضية التطور في الأنواع، القائلة بأنتهاء النسل في كل لون إلى غير ما ينتهي إليه نسل اللون الآخر، و بذلك يصبح لكل نوع أب رئيسي، أو (آدم) خاص بهم.

أما القرآن الكريم فظاهر آياته تشير إلى أن هذا النسل الحاضر من الإنسان - في كل مكان - ينتهي إلى ذكر و أب واحد سماه الله تعالى في كتابه (آدم)، و إلى أنثى و أم واحدة لم يسمها تعالى في كتابه، و لكن الروايات تسميها (حواء).

إن السبب الأساس و الرئيس في جعل القرآن مرجعاً لتأصيل علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) كونه كتاب الإنسانية الخالد، و المرجعية الربانية في العقيدة و الشريعة و السلوك، و لإن الدين الإسلامي هو دين الفطرة الإنسانية.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ

﴿ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[سورة الروم: ٣٠].

إن دراسة الإنسان من منطلق قرآني يمثل النظرة الحقيقية و الموضوعية للمراد الإلهي، و النظرة الألهية لبني البشر، نظرة الخالق، نظر العارف و العالم بالجنس البشري المستوعبة لدقائق الأمور، ولأساسيات الخلقة، النظرة الشاملة والواضحة و المتوازنة المندرجة ضمن نظام دقيق لتسيير المخلوقات ليس فيه أي خلل أو قصور، و لا يعترية العطب أو التعب أبداً.

﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[سورة يس: ٣٦].

إن مسألة التواصل، و التلاقح الثقافي هو منهج هدفه إزالة السلبيات، و الرجوع إلى قاعدة الأصل الواحد التي نادى بها الإسلام عن طريق كتابه الذي يعتبر الدستور الإنساني.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾[سورة النساء: ١].

فقضية تلاقح الثقافات و الحضارات، و نفي السلبيات، و إزالة الفوارق، و دعم الأيجابيات، و تنمية عمل الخير، و نشر المحبة و الألفة و السلام، تشير الى أن ما يجمع البشر هو أكثر مما يفرقهم، و ما تنوع الأجناس، و الألوان، و اللغات إلا آية من آيات الله تعالى، و ما وضعها الله تعالى إلا لحكمة بالغة هدفها الوصول إلى التكامل الجمعي الإنساني الوحدوي، و هذا هو مصداق قوله تعالى:

﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴾[سورة الروم: ٢٢].

و هذا إثبات للإنسان بأن كل ما علمه و سيعلمه لا شيء بالنسبة للعلم الألهي، و للحكمة الألهية.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [سورة الأسراء: ٨٥].

وإن المخلوقات كلها بما فيها الإنسان ما هي إلا خلق الله سبحانه و تعالى، فعلى الإنسان ألا يتعالى، و ألا يتكبر و يصنع الفوارق.

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ٣٨].

كما و إن معتقدات بني الإنسان لها أصل واحد، فالدين واحد و إن ما جرى من تفرق فهو طارئ دخيل، فالفطرة الأولية، و الدين الأولي هو التوحيد، و إن تعددت مسمياته(٢٣).

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾[سورة الشورى: ١٣].

كما و إن الأنسان الأول إنسان كامل بخلاف كل النظريات اللادينية و التي ترجع الإنسان إلى القرد أو إلى السمك أو إلى الحشرات و ما شاكلها.

﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾[سورة السجده: ٧].

(٢٣) هنالك أبحاث تؤكد إن الدين و منذ بزوغ فجر البشرية هو (الإسلام).

﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ [سورة الطارق: ٥ -٧].

﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ [سورة السجدة: ٧ -٩].

و إن قضية تطور و أرتقاء الإنسان من المشي على أربع ثم على اثنتين، و إن أصل الإنسان قرد ما هي إلا مزاعم باطلة، مخالفة للشرع و العقل، فالله سبحانه و تعالى هو الذي خلق المخلوقات كما هي عليه أشكالها اليوم.

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [سورة آل عمران: ٦].

فالمخلوقات لها خصوصياتها التي أختصها الله تعالى بها لحكمة بالغة من عنده، و هي مخلوقة منذ الخلق و لحد اليوم بنفس أشكالها فلا تغيير و لا تبديل و لا غير ذلك.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[سورة النور: ٤٥].

الأنثروبولوجيا القرآنية

علم الإنسان القرآني

إن المراد بـ(الأنثروبولوجيا القرآنية) هو الصورة السائدة عن الإنسان في القرآن الكريم، فالقرآن شَكَّلَ صورة رفيعة مليئة بالقيم الروحية عن الإنسان.

إن علاقة علم الإنسان بالقرآن علاقة وثيقة، لإن القرآن الكريم أنزله الله سبحانه و تعالى لهداية البشرية جمعاء، و محور القرآن الكريم هو (الإنسان)، و (علم الإنسان) المعروف بـ(الأنثروبولوجيا) خصوصاً علم وضعي وضعه الإنسان لدراسة (الإنسان) ليصل إلى فهم الإنسان، و من خلال هذا الفهم يمكن أن يحدث التقارب والوئام، و نبذ التباعد و الخصام، فبسبب الحروب، و المشاكل، و المشاحنات التي حدثت و تحدث بين الشعوب، و التي سببها أن الإنسان لا يفهم أخاه الإنسان، وإن الإنسان لا يعطي مساحة للآخر الإنساني في فكره، ولا حياته، ولا مستقبله، فوصلت هذه المشاحنات إلى داخل البلد الواحد، و الطائفة الواحدة.

و إن علم الإنسان يهدف إلى الوصول إلى وحدة الجنس البشري، و فهم الإنسان للإنسان فـ(كلكم لآدم، و آدم من تراب).

و إن عنصر المفاضلة في الإسلام بين بني الإنسان يختلف عنه في (البراغماتية)، و(الرأسمالية)، و(الشيوعية)، وباقي النظريات الوضعية، والفلسفات (اللادينية).

و علم الإنسان يدرس الإنسان من حيث جسمه و طبيعته البيولوجية، و من خلال هذه الدراسة وصل هذا العلم إلى أمور مهمة، لكن القرآن الكريم سبق هذا العلم في أمور كثيرة، ومواضيع مهمة، و ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴾[سورة الأسراء: ٧٠].

فتفضيل الإنسان على باقي المخلوقات كان لأسباب كثيرة منها طبيعة الخلق المعقد لهذا الكائن الفريد.

لكن كتب الأنثروبولوجيا مليئة بنظريات (داروين)، والأراء (المادية) البعيدة عن العقل، و الدين، و طبيعة الخلقة.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [سورة العنكبوت: ١٩].

إن البحث في القضايا الإنسانية المصيرية المتعلقة بخلق الإنسان و نشأته و تطوره و تفاعله سلباً أو أيجاباً مع محيطه، و مع أخيه الإنسان، و القدرة على التواصل باللغة و غيرها، و التنوع الديني، و الثقافي، و اللغوي، و الشكلي، و اللوني، و إنتاج العلم و المعرفة، و إبتكار وسائل تكنولوجية، كل هذه قضايا و مباحث مهمة من شأنها أن تقرب المسافات بين الشعوب و الأمم، أو تعمل على تعميق الفرقة و الهوة بينهما بناءً على توجيه البحث، و الأهداف و الغايات المرادة منه.

فلابد أن نؤمن بأن الفروق الموجودة بين بني البشر هي ليست فروقاً حقيقية، و ليست ذاتية، و لا تؤخذ بنظر الأعتبار، و ليس على البشر أن يؤمنوا بها، و يتعاملوا وفقها، فكل ذلك ما هو إلا تكريس لمبدأ الأستعلاء و الهيمنة، و مبدأ النفعية الضيقة، و الأقصاء و التهميش.

قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[سورة الروم: ٤١].

لقد ظلت الرؤية العلمانية تستأثر بعلم (الأنثروبولوجيا)، و توظفه لخدمة مصالحها، وأغراضها الأستراتيجية، منتهجة في ذلك منهجاً بعيداً كل البعد عن أسس البحث العلمي النزيه، و عن طريق نظرياتها و مناهجها و مبثوثاتها فقد أورثت الإنسان ـ في علاقته بالكون و الأنسان ـ رؤية غير سليمة، و غير موضوعية في كثير من العلوم و التعاملات. و على الرغم من دحض الكثير من نظرياتها، و مناهجها إلا أنها مازالت مهيمنة على الساحة العلمية و التعليمية، إن النظرة المادية الأحادية البعد و التوظيف و الغير الإنسانية للأنثروبولوجيا الغربية، و التي وصم بها هذا العلم الإنساني تفرض علينا اليوم أقتحام هذا العلم، و إتخاذ منطلق للبحث فيه من زاوية علمية، و إنسانية متعددة الأبعاد، و تكوين رؤية متناسقة



متسمة بالحياد، و الموضوعية، و النزاهة، و الشمول، مبنية على الواقع، و البرهان العلمي، و التطبيق الواقعي، لكي نتجاوز نظريات الحالة الراهنة، و التي جعلتنا مُقلدين بأمتياز بلا أدنى تفكير، فارضة علينا رؤية محدودة، وأفقاً مسدوداً، مما يجعلنا ـ لو تمسكنا بها ـ نبني مصيرنا على أوهام و تخرصات، و على نظريات لا تمت ـ في أكثرها ـ إلى الواقع بصلة، أساسها الأعتماد على جزئيات، و أعتقادات، و إستقراءات، ونُقولٍ بعيدة عن أرض الواقع، و الله سبحانه و تعالى هو القائل: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[سورة الأسراء: ٨٥].

والمشكلة إن مراكزنا التعليمية، وجامعاتنا، و كلياتنا، و بعض الصحف و المجلات، و أنصاف المثقفين يتحدثون عنها ويعممونها على أنها حقائق مطلقة مما يورث- إثر ذلك -واقعاً مختلاً، و إزدواجية في التفكير لدى الإنسان المسلم، و الذي يرى تناقضاً كبيراً ما بين ما تنادي به الكثير من النظريات الأنثروبولوجية، و بين آيات القرآن الكريم، و أساسيات الدين الإسلامي.

إن علم الإنسان القرآني يتخذ من القرآن منطلقاً تأسيسياً للبحث، فموضوعه الإنسان، و مجاله القرآن الكريم، كل ذلك بقصد بلورة تصور جديد لهذا العلم، يحفظ للإنسان خصوصيته وكرامته، ويجعله يعيش الوحدة الإنسانية في إطار التعدد و التنوع الشكلي و اللوني و اللغوي و الثقافي، و ذلك بأعتبار أن القرآن مصدر غني للحضارة البشرية، و عامل قوة.

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾[سورة الروم: ٢٢].

و لعل هناك من يتساءل عن السبب الداعي لأتخاذ القرآن أساساً للتأصيل الأنثروبولوجي؟.

لذا و في معرض الجواب عن ذلك نقول: لإن القرآن الكريم هو كتاب الإنسانية الخالد، و مرجعيته الربانية في العقيدة و الشريعة و الأخلاق و السلوك، ولأن الدين الإسلامي هو دين الفطرة الإنسانية.

﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الروم: ٣٠].

إن دراسة الإنسان من منطلق قرآني، و بنظرة موضوعية، و بأسلوب علمي، و برؤية الوحي التي تمتاز بالشمولية و الوضوح، و سعة الأفق، تكشف عن جهاز مفاهيمي يؤصل لبنية التفكير الإسلامي القائمة على تحقيق التوازن بين طرفي الثنائية التي يقوم عليها الوجود.

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾[سورة يس: ٣٦].

فالحقيقة ليست في أحد طرفي الثنائية، و إنما في الجمع بينهما، و لذلك كانت أمة الإسلام، أمةً وسطاً، تجمع و لا تفرق.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[سورة البقرة: ١٤٣].

فالإسلام قد أستوعب قبائل، و شعوباً، و أمماً، و ثقافات، و حضارات، و لم ينتهج سياسة الإلغاء، أو الإقصاء، أو الهيمنة و السيطرة، و إنما ترك للناس حرية الأختيار، و الحق في الأختلاف، و القناعة في الرؤيا، و إن بنية التفكير الإسلامي قائمة على التعايش و قبول الآخر.

فالإنسان و من منطلق التصور القرآني يتفاعل مع محيطه تفاعلاً إيجابياً يغيب عنه منطق الهيمنة، و السيطرة، و الأستعلاء، و يحضر فيه المشترك الإنساني.

إن تلاقح الحضارات عن طريق التواصل، ونفي السلبيات، والبحث عن المشتركات، وتطوير الأيجابيات، ونشر المحبة والسلم والأمن وفق رؤية أن ما يجمع بين البشر هو أكثر مما يفرقهم.

﴿ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [سورة آل عمران: ٦٤].

والتعامل وفق نظرة قرآنية بحتة ذات طابع إنساني حقيقي.

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [سورة فصلت: ٣٤].

فإن مبدأ الإنسان هو البحث عن نقاط الألتقاء، و عن أفضل أساليب التفاهم، إن القرآن الكريم يبحث عن (صديق)، و لا يبحث عن عدو.

﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن

﴿ ... كِتَٰبٍۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[سورة الشورى: ١٥].

من المؤمل لهذه الرؤيا القرآنية أن تقلب الموازين لتصبح الوحدة هي الأصل.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾[سورة النساء: ١].

و إن التنوع في الجنس و اللون و اللغة و الثقافة آية من آيات الله سبحانه و تعالى، و إنها نعمة تستوجب الشكر من جانب، و البحث العلمي من جانب آخر.

﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴾[سورة الروم: ٢٢].

و لعل القرآن الكريم برؤيته الفاحصة و المطلقة يفتح أفاق الممكن، حيث حديثه عن الحضارات البائدة ـ مثلاً ـ يجعلنا نراجع أنفسنا، و أحكامنا عن الحضارات الآخرى، و يدفعنا إلى التحلي بالتواضع بإعتبار أن حضارتنا الحالية ما هي إلا دورة من الدورات التي عرفها تاريخ الحضارات البشرية.

﴿ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ﴾[سورة نوح: ١٣ -١٤].

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾[سورة يونس: ٣٤].

لكن و مع كل ما ذكرنا ليست هنالك أهتمامات بهذا العلم في الوسط الإسلامي بشكل عام.

خَلق الإنسان و تطوره و ما يتَعلق به في المنظور القرآني

إن من أهم الأمور في دراسة شيء هو معرفة حقيقته، و كل ما يتعلق به، و بما أن دراستنا هنا هي حول الإنسان، و خلقه، و نشأته، و كل ما يتعلق بذلك، فما علينا إلا أن نقف لإستعراض خلق هذا (الكائن) و كل ما يتعلق بذلك من أمور ذاتية، و عرضية لها مساس كبير بالموضوع، و ذلك بنظرة (قرآنية) بحتة.

و لابد أن نعلم أن أهمية (علم الإنسان) تتجلى في دراسة الإنسان، و حقيقته، و تكوينه، و دراسة الثقافات المختلفة لبني الإنسان، و التطور و التكامل الذي وصل

إليه الإنسان منذ أقدم العصور، وتنوع وتقسيم المجتمعات، وأختلاف اللغات، وما شاكلها من مواضيع ذات صلة بهذا الكائن الفريد.

ونحن في هذا الموضوع سوف نتعرض لتدرج الخلق الإنساني، والمراحل التي مر بها حتى أقام الحضارات وساد البلاد، وحتى نهاية دورة حياته.

١. الإنسان خُلق من نطفة:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾[سورة يس: ٧٧].

و الآيات القرآنية الكثيرة تشهد بأن الله سبحانه و تعالى جعل بقاء و تكاثر الجنس البشري محصوراً بـ(النطفة) مع إنه تعالى أظهره و خلقه أول مرة من تراب، فـ(آدم) خُلق من تراب، و إن البشر -كل البشر -بنوه.

٢. و هذه النطفة مرت بتحولات عديدة:

قال تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾[سورة الحج: ٥].

فالمرحلة الأولى للتكون في الرحم مرحلة (النطفة) فهو يبقى لفترة معينة يطلق عليه أسم النطفة، ثم بعد ذلك تتحول هذه النطفة إلى (علقة) أي قطعة من الدم، ثم يتحول إلى مرحلة (المضغة) أي إنه يشبه قطعة اللحم الممضوغ، و بعدها يدخل مرحلة (الجنين) حيث تبدأ أعضاؤه بالتميز و التكامل و النمو فيتحول إلى شكل جديد، و ذلك هو مصداق قوله تعالى:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [سورةالمؤمنون: ١٤].

فالقرآن الكريم يذكر هذه المراحل التي مر بها حتى صار خلقاً جديداً و كأن لم يكن أصله نطفة.

وهذا الخلق متمثل بـ(الإنسان) والذي يقف العقل منبهراً عندما يقارن ما بينه، و بين النطفة التي تحدر منها.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[سورة المؤمنون: ١٤].

٣. هذه التحولات يتكون منها الجنين في

الرحم الذي يبقى مدة محددة معينة و معلومة:

قال تعالى: ﴿ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[سورة الحج: ٥].

لكن وسط بيئة تسيطر عليها الظلمات، و التي يسميها العلماء بـ(الساقط، و الكربوني، و الأنيوسي).

قال تعالى: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[سورة الزمر: ٦].

٤. ثم بعد أن يولد يسمى (طفلاً):

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ [سورة الحج: ٥].

٥. ثم يكبر و يتطور ليبلغ أشده:

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ﴾ [سورة الحج: ٥].

٦. ثم يسمى الإنسان بعد ذلك (رجلاً):

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ [سورة الكهف: ٣٧].

٧. ثم تحين لحظة أحد السنن الألهية المهمة إلا و هي سنة (الزواج):

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾[سورة الأعراف: ١٨٩].

٨. بعد ذلك تأتي مرحلة أخرى مهمة في أستمرار الجنس البشري ألا و هي مرحلة الحمل و الأنجاب المسماة بـ(النسل).

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا ﴾[سورة الأعراف: ١٨٩].

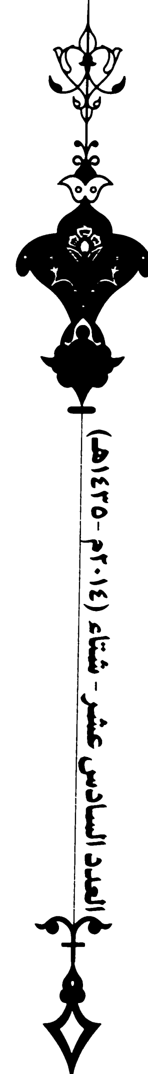
٩. و من ثم تكون النسل، و كان منوعاً ما بين (ذكور) و (إناث) لتتواصل عملية التكاثر.

فقال تعالى: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾[سورة النساء: ١].

١٠. ثم تتكون الأسرة، والتي سوف تكون نواة المجتمع، وهذه الأسرة مكونة من الزوجين، ومن البنين، ومن ثم من الأحفاد.

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [سورة النحل: ٧٢].

١١. ثم من الأسرة تنشأ الأسر، و منها ينشأ المجتمع، ثم تتكون القبائل، و الشعوب المتعددة، و المختلفة، و المتنوعة:



قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾[سورة الحجرات: ١٣].

١٢. و بعد ذلك التنوع، و الهجرات نشأت لغات و لهجات وألوان متعددة لحكمة إلهية مرادة:

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ [سورة الروم: ٢٢].

فمن جراء التنوع والتعدد كوّن الإنسان حضارات مختلفة، حضارات مازالت أثارها باقية لحد الآن، حضارات في كل أصقاع الكرة الأرضية، إذ لم تكد تخلوا بقعة من أثر لهذا المخلوق و لو مروراً.

و إلى ذلك يشير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في نهج البلاغة بقوله: (ثم جمع سبحانه من حزن الأرض -أي وعرها-و سهلها، و عذبها و سبخها، تربة سنها ـ أي صبها ـ بالماء حتى خلصت، و لاطها ـ أي خلطها و عجنها ـ بالبلة حتى لزبت ـ أي أشتدت ـ فجبل منها صورة ذات أحناء و وصول، و أعضاء و فصول، أجمدها حتى استمسكت، و أصلدها حتى صلصلت، لوقت معدود، و أمد معلوم، ثم نفخ فيها من روحه فمثلت إنساناً ذا إذهان يجليها، و فكر يتصرف بها، و جوارح يختدمها، و أدوات يقلبها، و معرفة يفرق بها بين الحق و الباطل، و الأذواق و المشام، و الألوان و الأجناس، معجوناً بطينة الألوان المختلفة، و الأشباه المؤتلفة، و الأضداد المتعادية، و الأخلاط المتباينة، من الحر و البرد، و البلة و الجمود..)[٢٤].

١٣. ثم يصبح هذا الإنسان (كل إنسان) شيخاً كبيراً:

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ﴾ [سورة غافر: ٦٧].

١٤. ثم يموت ذلك الإنسان بسبب إنتهاء دورة حياته:

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ﴾[سورة النحل: ٧٠].

١٥. و الموت قاعدة كلية تنطبق على جميع البشر بلا إستثناء:

قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾[سورة الأنبياء: ٣٥].

لقد أنشأ الله سبحانه و تعالى الإنسان

---

(٢٤) نهج البلاغة، الخطبة (١)، ص٢٨.

مركباً من جزأين (بدن) و (روح)، و هما متلازمان، و متصاحبان ما دامت الحياة الدنيا، ثم يموت البدن، فتفارقه الروح الحية.

ولابد أن نعلم أن الإنسان يتميز بصفات خلقية وعضوية خاصة لا يشارحه فيها أي من الكائنات الحية الأخرى و هي:

١. أنتصاب القامة، و السير على قدمين أثنين.
٢. تركيب الرأس من حيث شكله، و مكوناته.
٣. تركيب الجسم من حيث شكله العام، و مقاييس أطرافه (الذراعين) و(الساقين)، و مدى تناسبهما مع الأعضاء الأخرى في الجسم.
٤. محدودية المساحات التي ينبت فيها الشعر، و تحديد أماكن وجودها.
٥. فترة الطفولة الطويلة، مقابل قصرها عند الكائنات الرئيسية الأخرى (الثدييات).

إِبطالُ نظريةِ النُّشوءِ و الإِرتقاء

وهنا لابد أن نقف على أمر مهم ألا و هو نظرية التطور أو نظرية النشوء و الأرتقاء التي نادى بها (داروين) و دعاة المذهب اللاديني من بعده حتى الوقت الحاضر.

لقد زعم البعض بأن فكرة التطور كانت نتيجة لدراسة (فكرة النشوء في علم الحياة) و التي دعا إليها الطبيب الفرنسي (لا مارك)[٢٥] في كتابه (التاريخ الطبيعي للحيوانات اللافقرية) عرض فيه لقضية تطور الأحياء، و بين طريق التطور، ولكنه عجز عن بيان الصلة بين أنواع الأحياء، كما عجز عن بيان العوامل التي أدت إلى التطور.

ثم جاء بعد ذلك الأنكليزيان (تشارلس داروين) و (ولاس) ليكملا نظرية (لا مارك)، و في عام (١٨٤٢م) نشر داروين رسالة موجزة عما سماه بـ(نظرية النشؤ و الأرتقاء) فتلقفها دعاة البوهيمية و أحدثوا حولها ضجة ملأت أرجاء العالم، ومازالت لها بقايا حتى يومنا هذا في عقول البعض[٢٦].

وبالحقيقة لو دققنا بهذه الفكرة

---

(٢٥) لا مارك (١٧٤٤ -١٨٢٩ م).
(٢٦) فلسفة الخليقة، كاظم ناصر الحسن، ص١١١.

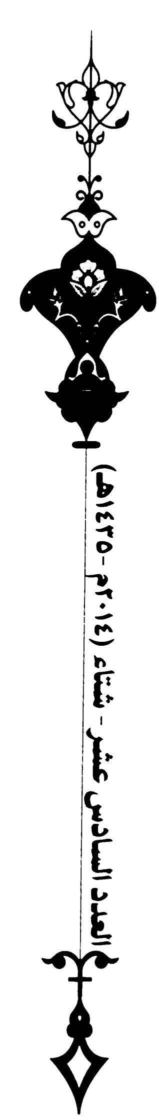
لوجدناها عبارة عن تصور لـ(أسفار الفيدا) الهندية لأصل الخليقة و لكن بشكل معكوس، مع تضمنها لبعض التعديل و التغيير.

و فكرة (النشوء و الأرتقاء) تزعم بأن تطور الخليقة بداء من الأدنى (الرواشح و الديدان و الحشرات) إلى الأعلى (القرد)، ثم (القرود العليا)، ثم (الإنسان الأول)، كل ذلك يصور عدم وجود خالق.

و لقد عجز (داروين) من إيجاد حلقة وسطى تربط الزواحف و الطيور، كما فشل في إيجاد مثل هذه الحلقة بين القرد و الإنسان، فما كان منهم إلا اللجوء للتزوير[٢٧].

وهنالك كلام يُنقل بأن داروين لم يكن ملحداً، و لم يقل بالمصادفة، بل أراد من خلال نظريته أن يقول: (إن الخلق جميعاً نشأ من أصل واحد).

لكن -و بحسب من يقولون ذلك- أستغلت هذه النظرية من قبل الملاحدة الماديين، فتبنوها، و أخذوا يدافعون عنها، و من أشهر أولئك العالم البيولوجي الألماني (أرنست هيجل) فقد قام هذا الشخص بمحاولة لأثبات هذه النظرية و ذلك عندما رأى أن صورة الأجنة لا تتطابق تماماً مع نظرية التطور، فقام بعمليات ترتيش و حذف في صورة الأجنة البشرية لكي يطابقها مع النظرية التي يتزعمونها، لكن أحد العلماء أكتشف عملية التزوير، و أعلنها في الصحف، و تحدى (هيجل) في ذلك، فما كان من (هيجل) إلا أن يعترف بهذه الجريمة بعد فترة صمت و تردد في مقالة كتبها في (١٤/ ١٢/ ١٩٠٨) قال فيها: (إن ما يُعزيه هو أنه لم يكن الوحيد الذي قام بعملية تزوير لإثبات صحة نظرية التطور، بل إن هناك المئات من العلماء و الفلاسفة قاموا بعمليات مماثلة من التزوير لإثبات هذه النظرية...)[٢٨].



---

(٢٧) يراجع لذلك: تهافت نظرية داروين لأورخان محمد علي، و نظرية التطور هل تعرضت لغسيل دماغ للبروفيسور داون. ث. كيس، و نظرية التطور ليست ثابتة لأورخان محمد علي، و قصة الأيمان لنديم الجسر، و حقيقة الخلق و نظرية التطور لفتح الله كولن، و نقد نظرية داروين للشيخ رضا الأصفهاني، و الردود الكثيرة لعلماء الشيعة على هذه النظرية و كل ما يتعلق بها.

(٢٨) تراجع الكتب التي ذكرناها مسبقاً.

و إلى ذلك يشير السيد الطباطبائي رحمه الله بقوله: (إن النوع الإنساني، و لا كل نوع إنساني، بل هذا النسل الموجود من الإنسان ليس نوعاً مشتقاً من نوع آخر حيواني أو غيره حولته إليه الطبيعة المتحولة المتكاملة، بل هو نوع أبدعه الله تعالى من الأرض، فقد كانت الأرض و ما عليها و السماء و لا إنسان، ثم خلق زوجان أثنان من هذا النوع و إليهما ينتهي هذا النسل الموجود.. و أما ما أفترضه علماء الطبيعة من تحول الأنواع، و إن الأنسان مشتق من القرد، و عليه مدار البحث الطبيعي اليوم، أو متحول من السمك على ما أحتمله بعض، فإنما هي فرضية، و الفرضية غير مستندة إلى العلم اليقيني، و إنما توضع لتصحيح التعليلات و البيانات العلمية، و لا ينافي أعتبارها أعتبار الحقائق اليقينية، بل حتى الأمكانات الذهنية، و إذ لا أعتبار لها أزيد من تعليل الآثار، و الأحكام المربوطة بموضوع البحث..)(٢٩).

نعم، إن بعض الحفريات التي تمت في مجال (الحفريات البشرية) (paleontology) و الذي يعتبر أحد فروع الأنثروبولوجيا العضوية قالت: إن الإنسان القديم و الذي كان يعيش على هذه الأرض منذ ما يقارب من نصف مليون سنة، كان يختلف عن الإنسان الحالي، حيث كان أكبر حجماً و أقوى بنية، و هذا ما أثبته القرآن الكريم في العديد من آياته.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [سورة الروم: ٩].

و قال تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾ [سورة التوبة: ٦٩].

مسألة البدائية

بين الحقيقة و الوضع و التنظير

إن مسألة تثبيت مرحلة (البدائية) جاءت جراء دراسة مجتمعات و أقوام موجودة حالياً بحجة؛ أنها تحاكي أو تطابق المجتمعات البدائية، و في الحقيقة هذا ما تتبناه الفلسفات المادية، و أصحاب

(٢٩) الجواهر النورانية، السيد الطباطبائي، أعداد و جمع رضوان سعيد فقيه، ص٢٢٩.

النظريات اللادينية.

فقد قام جملة من علماء الإنسان السذج بدراسة أقوام في (الكونغو، و الأمازون، و أستراليا، و أماكن أخرى)، من خلال أعتبارهم الأمتداد للطور البدائي، و إنهم يحاكون تلك المرحلة.

والمشكلة هي: لنثبت وجود هذه المرحلة، و من ثم نحاكيها، أو نبني النظريات حولها، أو نبحث عن ما يشابهها لنعقد مقارنات نستحصل منها الحقائق اللازمة عن تلك المرحلة الزمنية.

إن الله سبحانه و تعالى هو خالق الإنسان، و هو الذي وضع فيه العقل، و جعله مفكراً عاقلاً متأملاً، تواقاً لبني جنسه، إجتماعياً بطبعه، محباً للتعرف على الأشياء، ولكل ما يساهم في راحته و سكينته، ديدنه التغير و التبدل و التطور لما هو أحسن و أفضل. و لذلك أرسل الله سبحانه و تعالى الرسل و الأنبياء عليهم السلام، و أشار إلى أن إرسالهم كان (بلغة أقوامهم).

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [سورة إبراهيم: ٤].

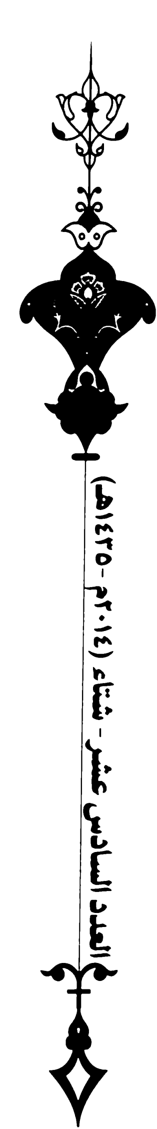
فإن كانت البدائية و التي تساوق الحيوانية و البهيمية مرحلة حقيقية فما الفرق بين الإنسان و الحيوان؟. و هذا تأكيد على النظرية (الدارونية) البعيدة عن الواقع، و التي أثبت العلم كذبها، و بالتالي فما الحكمة من أرسال الرسل و الأنبياء عليهم السلام من أول يوم للإنسان على الأرض، و حتى سني خاتم الأنبياء و المرسلين صلى الله عليه وآله.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَا ﴾ [سورة المؤمنون: ٤٤].

وإذا كانت مرحلة سابقة لمرحلة (العقل) و (التطور) فهذا مخالف للعدل الإلهي، و للخطاب الإلهي القائل بالكرامة الإنسانية.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴾[سورة الأسراء: ٧٠].

و نحن نعلم بأن الأنسان الأول هو (آدم) و زوجته (حواء) نزلا إلى الأرض حيث لا إنسان، ثم كونا عائلة، و من ثم تكون المجتمع، و كذلك نعلم بإن الهداية



سابقة للضلال، و إن الحضارة و المدنية سابقة للبدائية و التخلف، و ما (البدائية) إلا مرحلة إفتراضية طارئة جاء بها أصحاب الفلسفات المادية، و دعاة الفكر العلماني اللاديني.

لكن المشكلة الواجب أن نلتفت لها؛ أن قضية (البدائية) موجودة في الكتب و المناهج الدراسية للدول الإسلامية، سواء في (التاريخ)، أو (علم الإجتماع)، أو (علم الإنسان)، أو (علم الآثار). و بذلك أصبح واقعاً يشكل حيزاً في ذهنيات ابنائنا يتعلمونه من المدارس التابعة لدول ترفع شعار الإسلام ؟؟؟ !!!.

خلاصة البحث القرآني

حول الوجود الإنساني

إن الباحث في علم الإنسان القرآني ينتهي إلى النتائج التالية، و التي قد تشكل قواعد مهمة عليه أن يأخذها على محمل الجد و يستفيد منها، و هي كثيرة و متشعبة، و تحتاج إلى دراسات واسعة لكن و من باب إعطاء صورة مجملة فسوف نتعرض لها و بشكل إجمالي، و هي كالآتي:

١. وحدة الخلق لجميع المخلوقات:

فكل المخلوقات مرجعها خالق واحد ألا و هو الله سبحانه و تعالى.

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ٣٨].

٢. وحدة الجنس البشري:

أي أنه واحد من حيث عدم تشابهه مع باقي المخلوقات، فهو كائن فريد يختلف عن باقي المخلوقات و يتميز عنها بميزات كثيرة أهمها و أعلاها (العقل).

و أنه واحد أي لم يتغير أو يتطور منذ أن خُلق الأنسان الأول و لحد الآن، فالأنسان الأول لا يختلف عن الإنسان الحالي، بل الإنسان كما هو، و مثل ما هو عليه منذ أن خلق أول مرة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [سورة النساء: ١].

٣. وحدة الدين:

الدين واحد، نزل من الواحد، إلى بني البشر، فكيف تختلف الشرائع السماوية، و

نرى فيها هذا البون الشاسع؟.

في الحقيقة ذلك حصل بسبب التحريف، و التزوير الإنساني المصلحي، و إلا فالدين واحد.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[سورة الشورى: ١٣].

وإن البحث القرآني يوصلنا إلى أن الدين الذي نزل إلى البشرية هو واحد ألا و هو (الإسلام).

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [سورة آل عمران: ١٩].

٤. وحدة اللغة:

فاللغة واحدة من حيث التأسيس و قضية الألفاظ، و هنالك أختلافات، و نظريات حول اللغة ناقشها الأصوليون، و أهل اللغة، و فيما بعد تعددت اللهجات، و وصلت إلى لغات مستقلة لها خصوصيتها، و كيانها.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[سورة البقرة: ٣١].

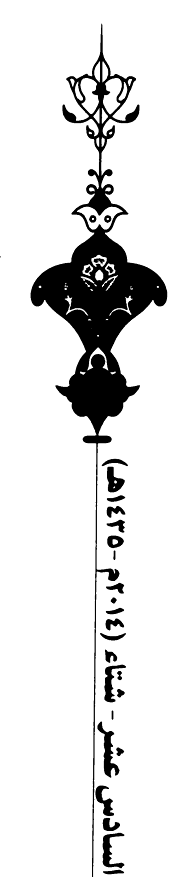
٥. الإنسان الأول إنسان سوي و كامل من حيث الخلقة، و العلم، و الأيمان:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[سورة المؤمنون: ١٢-١٤].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١١].

٦. الأختلاف البشري من حيث (الشكل، واللون، واللغة، والثقافة) هو أختلاف تنوع لا أختلاف تضاد:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة



الحجرات: ١٣].

و ما ذلك إلا آية من آيات الله سبحانه وتعالى.

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾[سورة الروم: ٢٢].

٧. هنالك حضارات كثيرة و متنوعة سبقتنا لربما تكون أكثر منا تطوراً و تقدماً:

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة غافر: ٢١].

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ ﴾[سورة محمد ١٣].

٨. الإنسان منذ خُلق و إلى أن يموت هو محتاج إلى الله تعالى في كل شيء شاء أم أبى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [سورة فاطر: ١٥].

٩. للبشر خصوصيات تختلف عن باقي المخلوقات:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[سورة الأسراء: ٧٠].

١٠. الإنسان هو العنصر الأرقى في سلسلة الموجودات الأخرى، خُلق كما هو عليه الآن، كان خلقه لغاية و هي وراثة الأرض، و عبادة الله و طاعته:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [سورة البقرة: ٣٠].

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٥].

إن القواعد و النظريات و الناذج التي أعطاها القرآن الكريم عن (الإنسان)، و التي لها أهميتها في مجال (علم الإنسان) تحتاج إلى تطبيق عملي، و إلى دراسة ميدانية لأثبات صحتها، و لتأسيس علم إنساني قرآني بامتياز.

